التفكيرُ في قضايا التأويلِ

سمير بودينار(*)

بدايةً أودُّ أن أشكرَ لمنظِّمي هذا المؤتمرَ: مشيخةِ الأزهرِ الشريفِ ومجلسِ حكماءِ المسلمين وعلىٰ مَفرِقَيهما فضيلةُ الإمام الأكبر، شيخُ الأزهرِ الشريفِ، لاختيارِهما قضيةَ التأويلِ محورًا من محاور هذا المؤتمرِ؛ لأن هذه القضية التي نناقشُها -وكما لا يخفىٰ علىٰ حضراتِكم- تظلُّ واحدةً من المشكلاتِ الأساسيةِ التي يتعاملُ معها طلابُ السلمِ من مصدره الدينيِّ في عالمِ اليومِ.

ومن المهمِّ أن نُبيِّنَ ابتداءً أننا لا نقصدُ إلىٰ مُطارحةِ قضيةِ التأويلِ في سياقِها العامِّ، ولكن القصد إلىٰ إشكاليات التأويلِ المرتبطة بمَنحىٰ المغالاةِ فيه من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرىٰ إلىٰ ما قد يقعُ فيه الفكرُ من أخطاءٍ في عمليةِ التأويلِ تحرِّفُ النصَّ الدينيَّ عن معناه، وتَقصُرُ به عن مقاصِدِه، وتجعله عرضةً للاستخدامِ في التبريرِ، وفي الوصولِ إلىٰ أغراض محدودةٍ قاصرةٍ، أو غاياتٍ غير غاياتِ الأديان ومقاصدها، بوصفها مؤسِّسًا مرجُوًّا للسلمِ في عالمِ اليومِ.

والواقعُ أن مَهمَّةَ تعرُّفِ قضيةِ التأويلِ وتبيُّن إمكاناتها ومحاذيرها، هي مَهمَّةٌ ينبغي أن تضطلعَ بها النُّخَبُ الدينيةُ في كلِّ الأديانِ السماويةِ، وهي مَهمَّةٌ دقيقةٌ شاقَّةٌ؛ إذ مقتضاها النحتُ الفكريُّ في البناءِ الثقافيِّ والتراثيِّ للأديانِ برُمَّتِه، اجتهادًا فيه، أيِ النظرُ الفكريُّ في إمكانِ الوصولِ للغاياتِ والمقاصدِ والأحكامِ والقيمِ الساميةِ التي جاءت بها رسالاتُ الأديانِ كلِّها من خلال نصوصها الدينية وتراثها

التأويليِّ؛ وتفاكرًا أيضًا، أي ممارسةَ التفكُّر في قضيةِ التأويلِ بشكلٍ جماعيٍّ؛ لأنَّ التأويلاتِ اليومَ ترتبطُ -كما أُشيرَ إليه قبل قليل- بجغرافيا الفكرِ في عالَمِنا، وخرائِطِه التي تتمُّ صياغتُها يومًا بعد يومٍ، فتؤثر في الأفكارِ، ومن ثَمَّ في سلوك الناسِ وأفعالِهم.

إن مَهمَّةَ التفكيرِ في تأويلِ النصوصِ الدينيةِ ينبغي أن تتمَّ على مستوىٰ كلِّ دينٍ من الأديانِ، خاصَّةً الأديانَ السماويةَ، وهذا جُهدٌ ينبغي أن يُنظَرَ له على مستوىٰ مراكزِ البحثِ والفكرِ في مُختلِفِ المؤسساتِ الدينيةِ لكلِّ الرسالاتِ السماويةِ.

ولأني دعوتُ إلى الاضطلاع بتلك المسئولية على صعيد كلِّ دين ومن أهل العلم والرأي فيه، فإني سأضربُ مثالًا، بشكلٍ مختصَرٍ، على قضيةِ إشكاليةِ التأويلِ عند المسلمين، ليكونَ ذلك مثالًا صالحًا لأن يُنسَجَ على مِنوالِه في التفكيرِ في قضايا التأويلِ في الأديانِ السماويةِ المختلفةِ؛ اليهوديةِ والمسيحيةِ وغيرِها.

والمثالُ الذي اخترتُه لقضيةٍ خطيرةٍ يُعاني منها ويتعاملُ معها كلُّ طلابِ السلمِ في عالمِ المسلمين، بل في العالمِ، والذين يتعاملونَ منهم مع تحدياتِ الإرهابِ خاصةً، ألا وهي قضيةُ التكفيرِ، باعتبارِه مهددًا للسلمِ في مختلِفِ المجتمعاتِ العالميةِ، بما فيها المجتمعاتُ المسلمةُ، والأحرىٰ أن نسعىٰ لبناءِ أُفُقٍ إيجابيٍّ بين الجماعاتِ الدينيةِ المختلفةِ داخلَ هذه المجتمعات من أجلِ بناءِ أوطانٍ متماسكةٍ، وتحقيقِ الانتماء لأمَّةٍ إنسانيةٍ واحدةٍ.

هذه مشكلةٌ مرتبطةٌ بتأويلِ النصوصِ الدينيةِ في موضوعِ الإيمانِ؛ فكلُّنا نسمعُ في الخطابِ الدينيِّ الإسلاميِّ عن قضيةِ الإيمانِ، وأنَّ الإيمانَ هو قولٌ باللسان يتبعه فعلٌ وعملٌ، وتصديقٌ بالجَنانِ، وعملٌ بالأركانِ، وأنَّ الإيمانَ ما وقَرَ في القلبِ وصدَّقه العملُ، وهذا قولٌ شائعٌ على المستوى الدينيِّ وخطاباتِ الوعظِ، والحقيقة أن فيه مسألةً خطيرةً، وهي الحكمُ على إيمانِ الناسِ من عدمِه؛ بناءً على العملِ الذي يقومون به، وعلى تصرفاتِهم الظاهِرةِ، وعلماءُ العقيدةِ يُدرِجون هذه القضية في مفهومِ الإيمانِ، وهي مسالةٌ خطيرةٌ، تشكِّل موضوعَ اختلافاتٍ في تأويلِ النصوصِ بين الفِرَقِ والتياراتِ الإسلاميةِ، خصوصًا بين المعتزلة فالخوارج، من الذين قالوا إن العمل ركنُ الإيمانِ وأساسُه، وبين اتجاهاتٍ أخرى، تشكل الاتجاه الوسطيَّ في الفكر الإسلاميِّ، وهي مدرسةٌ خرَجَت من هذه القضية مخرجًا وسَطًا عندما اعتَبرَت أن العملَ يَدلُّ على تمامِ الإيمانِ وليس شرطًا في بنائه.

وبالتالي لا مدخلَ لأحدٍ أن يُكفِّرَ الآخرَ لأنه ارتكب الكبيرة، ويخالفُ هذا الاتجاه ما ذهبت إليه بعضُ الفِرَقِ كالخوارج الذين كفروا مرتكبَ الكبيرةِ، وكالمعتزلةِ، الذين قالوا إن تاركَ العملِ كافرٌ، ثم تراجعوا بعد ذلك، في قولهم بالمنزلةِ الوسَطِ بين المنزلتين.

إذًا فالقضية التي تبدو قضيةً عامَّةً في الخطاب الديني الحالي كما هو الأمرُ بالنسبة لقضية الإيمان، تشتملُ على الخطأ التأويليِّ الذي يقع فيه التكفيريون عندما يَبنُون على هذا القول العام أحكامًا تتصلُ بالحكمِ على إيمان الناس من خلال عملِهم،

وإخراجِهم -بناءً عليه- من دائرة الدِّينِ، وهذا مثالٌ واحدٌ، وإلا فهنالك أمثلةٌ كثيرةٌ في هذا السياقِ.

أَختِمُ بالقول: إن مِثلَ هذه الأفكار تحتاجُ إلىٰ عملٍ جماعيٍّ، وهي أمانةٌ ينبغي أن يقومَ بها أصحابُ الأديانِ كلِّها، كلٌّ علىٰ مستوىٰ الديانة التي ينتمون إليها، لعلنا نستطيع أن نُنجِزَ هذه التوافقاتِ الفكريةَ التي تحتاجها المجتمعاتُ أشدَّ الحاجةِ، ونَنزِعَ هذا الفتيلَ الذي يعتمدُ علىٰ دائرةِ التأويلاتِ تلك، فيكونُ في كثيرٍ من الأحوالِ سببًا في تهديدِ السلمِ الذي اجتمعنا اليومَ لنتحدثَ عن إشكالياتِه وتحدياتِه.